سؤال التسامح بين اللحظة الدريدية و اللحظة الهابرماسية

رويدي عدلان
جامعة جيجل

تاريخ الإيداع: 2018/01/08 تاريخ القبول : 2018/03/13

الملخص:

يحاول هذا المقال إلقاء الضوء على آراء فيلسوفان من فلاسفة الحداثة والاختلاف وهما جاك دريدا زعيم التفكيك ويورغان هابرماس، أحد اقطاب الجيل الثاني لمدرسة فراكنفورت، وهذا ضمن مسألة التسامح، كأحد المسائل الصعبة والمعقدة، التي بحث فيها الكثير من المفكرين والفلاسفة والسياسيين عبر مختلف العصور والحقب الزمنية، من أجل إيجاد الحلول الازمة لما يعيشه المجتمع الدولي من أزمات وحروب سببت الهلاك للبشرية جمعاء، وبعث السلام في الخريطة الجيوسياسية للعالم.

الكلمات المفتاحية: التسامح، السؤال الفلسفي، المجتمع الدولي، جاك دريدا، يورغن هابرماس.

Resumé :

Cet article essaie de mettre en lumière la problématique de tolérance comme l'un des problèmes difficiles et compliqués. IL a suscité des recherches menaient par des philosophes et des politiciens durant de différents siècles passés pour trouver des solution favorables pour épargner la société intentionnelle des crises et des guerres . Cette étude s'appuie sur les positions philosophiques et politiques de Jacques Derrida le philosophe de la déconstruction et Jürgen Habermas l'un des membres de l'école de francfort .

Mots-clés : Tolérance, question philosophique, société internationale, Jacques Derrida, Jürgen Habermas

تمهيد:

شكل سؤال التسامح أحد أهمّ الأسئلة المعقّدة، التي أثارت انتباه المفكرين والفلاسفة وعلماء السياسة ورجال الدين، وهذا عبر عصور مختلفة من ظهور الخطابات الفلسفية، سواء المشاريع الفلسفية الشرقية أو الغربية، ومازال إلى غاية اليوم يثير جدالا نقديا وفكريا واسعا بين الدارسين والمفكرين والفلاسفة، بحكم ما خلفه من آراء ومفاهيم وقضايا، ترتبط بمصير الانسان وسلامه وحريته، في ظل المتغيرات التي يشهدها المجتمع الدولي على مختلف الأصعدة، السياسية منها

والاجتماعية والثقافية وحتى التكنولوجية، التي خلّفت صداعا رهيبا أثقل كاهل الفلاسفة والمفكرين في العصر الحديث خصوصا، وفي هذا الصدد يمكن التنويه إلى جهود فلاسفة مدرسة فرانكفورت الألمانية سواء لدى الجيل الأول أو الجيل الثاني والثالث، وذلك من أجل إخراج العقل الغربي من المآزق الميتافيزيقية التي آل إليها، وتجاوز بعض المشكلات التي أفرزتها الحداثة، والعقل الأداتي باصطلاح يورغان هابرماس، والتكنولوجيا الرهيبة التي لم تجن منها أوروبا غير الدمار والقتل، فكانت سببا في هلاك الملايين من البشر، كما هدمت العديد من الثوابت والقيم الأخلاقية، التي بقيت مجرد شعارات فقط من قبل رجال السياسة، ومن أجل تجاوز هذه المآزق الأخلاقية، سعت بعض المشاريع الفكرية والفلسفية في أوروبا إلى طرح هذه الأسئلة على عدّة أصعدة وفتحها على زوايا متعددة من التفكير الفلسفي ، محاولة تقديم مجموعة من المقترحات والأفكار الي تتوغل في عمق هذه الخطابات، حيث تحفر في المنظومة السياسية والفكرية والفلسفية للحضارة الغربية، وفي مقدمة هذه الأسئلة الأخلاقية المعقدة، نجد سؤال التسامح كسؤال إشكالي فرض وجوده ضمن الخطابات الفلسفية المعاصرة، وهو سؤال مفتوح على احتمالات عديدة، وطريقه محفوف بالمخاطر والمطبّات، كما يفرض قراءة خاصة ومتأنية للمتن الفلسفي الغربي في عصوره المختلفة، وعبر مختلف اللحظات الفكرية التي مرّ بها ومن ضمن الفلاسفة الذين اشتغلوا على هذا السؤال الفلسفي نجد الفيلسوف الفرنسي الجزائري المولد جاك دريدا، والفيلسوف الألماني يورغان هابرماس أحد أقطاب الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت، الذي كثيرا ما قاوم هذا المدّ في أغلب مدوناته الفلسفية، وإن بقي مفهوم التسامح غامضا عنده وعند الكثير من الدارسين والفلاسفة، وهذا بحكم المرجعية الفكرية، ومنهجية التحليل التي تخص كل مفكّر وفيلسوف وآليات عمله من جهة، واتجاهه الإيديولوجي من جهة أخرى، والمرامي والأهداف التي يود الوصول إليها كل باحث في هذه المسألة، إلاّ أنّ دريدا و هابرماس شكّلا حالتان استثنائيتان ضمن الفلسفة الغربية المعاصرة، وذلك من خلال توغلهما في مسائل معقدة تخص المنظومة الفكرية الأوروبية ونظام الخطاب الفلسفي الغربي، وخلخلتهما لمجموعة من المسلمات الثابتة التي ترسبت في خلايا العقل الغربي، وتكلّست لتشكل منظومة دوغمائية من الأفكار، التي فرضتها مجموعة من الإيديولوجيات والأنظمة، وقد استطاعا أن يقتحما الوسط الفكري والفلسفي والنظرية الأخلاقية بسرعة فائقة، ويستحوذا على اهتمامات الباحثين في المسائل الأخلاقية، خصوصا وأنّ هذه الآراء والمواقف تشكّل ثورة على الأفكار السابقة، وتأسيسا لفكر ما بعد حداثي يريد تقديم بديل أخلاقي جديد لأزمة

العقل الغربي ومنظومته القيمية، ليرتقي بالمجتمع الدولي نحو الرقي، وذلك من خلال تكريس قيم الصفح والتسامح والسلام بين بني البشر.

فكان لآراء جاك دريدا وهابرماس تأثير كبير في خلخلة العديد من المفاهيم التقليدية السائدة على مستوى فلسفة الأخلاق المعاصرة، وهذا المقال يروم إلى تحديد موقف هذان الفيلسوفان من هذه المسألة الأخلاقية وكيف طرحت من قبلهما؟ وماهي البدائل الازمة لتحقيق هذه القيمة الأخلاقية؟ وصولا إلى نقاط التلاقي والاختلاف بينهما.

ويعد جاك دريدا وهابرماس كقامتان فكريتان ضمن الساحة الفلسفية الغربية والعالمية، من المشتغلين على هذا النوع من الأسئلة الأخلاقية، واللذان أسسا لمشروعان فكريان وفلسفيان متميزان، على الرغم من الانتقادات التي تعرضا لها، بل وزادتهما قوة ومناعة ومحل إشادة من قبل كبار الفلاسفة والمفكرين وهما مشروعان أفصحا فيهما هذان الرجلان عن مختلف آرائهما ومواقفهما اتجاه ما يحدث في العالم من تجاوزات ومظالم في حق الشعوب المستضعفة، وفي مقدمتها شعوب العالم الثالث، وردود الفعل الدولية اتجاهها، وقد فتح كل واحد منهما مشروعه على أكثر من صعيد من أجل الكشف عن مختلف الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، التي أبعدت العالم عن مثل هذه القيم الأخلاقية، والتي لا يمكن أن تكون بريئة بأي حال من الأحوال، وقد حمل هذان المشروعان بين دفتيهما مجموعة من المفاهيم التي تتعلق بمسائل جوهرية تخص الانسان، كمسألة السلام والأمن والحرية والمسؤولية والتسامح، وهذا يظهر جليا في مشروع دريدا، وما كتبه هابرماس في أغلب كتبه، والكل يعترف لهما ببعض المواقف التي تخص مجموعة من القضايا السياسية والأخلاقية، وتفكيكها وتفتيتها، وتشريح الواقع الذي يعيشه الانسان في هذا الوضع الميتافيزيقي الجديد، فيكون الهدف من ذلك نشر القيم الأخلاقية، من أجل تجاوز الأزمة الأخلاقية، التي حلّت بأوروبا، وإعادة القيم الأصيلة بحثا عن فضاء إنساني، ومجتمع دولي يستوي فيه جميع الشعوب تحت لواء قانون عادل واحد.

ومن هذا المنطلق تشكّل مشروع مدرسة فرانكفورت، والذي أسس له فلاسفة ومفكرين وفي مقدمتهم هابرماس نفسه، الذي حاول تشريح هذا السؤال العميق، وذلك بالاستناد إلى عدّة إبستمولوجية متعددة المرجعيات، والحال نفسه مع جاك دريدا، ليحاولان تقديم مفهوم جديد للتسامح، يقوم أصلا على مبدأ إنساني وأخلاقي.

1- التسامح كمفهوم وكسؤال فلسفي:

التسامح من المصطلحات التي يشوبها الغموض والضبابية، فهو زئبقي المفهوم، مراوغ و مخادع و مضلل في دلالته، يصعب على أي فيلسوف أو مفكر فهمه وقياسه، سواء من حيث منهجه أو من حيث مراميه وأهدافه، بل وهو ملتبس سواء في البيئة الغربية أو العربية، في الميدان الديني أو القانوني والأخلاقي، ومن هذا المنطلق نقر بصعوبة تحديد مفهوم دقيق وجامع للتسامح، كسؤال فلسفي كوني وكيفية النظر إليه، التي تختلف بين الشعوب المختلفة، فليس التسامح منهجا في السلوك كما أنه ليس نظرية في القيم، وليس فلسفة في الحياة أو نوع من الترف الفكري، أو جملة من الأطروحات الأخلاقية، ولكنه انفتاح عن سؤال الفلسفة نفسها، وإعادة التفكير فيما ينتظر الانسان من تحديات ضمن الراهن السياسي والاجتماعي والثقافي، وهو ممارسة وثقافة سلوكية، تقوم على توجيه السلوك الإنساني نحو قيم الخير والسلام، وتجاوز الأحقاد والضغائن المترسبة في أعماق النفس البشرية، ونشر قيم العفو والصفح ، «بمعنى آخر قبول الآخر المختلف سواء في الدين أو العرق أو السياسة أو الثقافة والاعتراف به كند»[1]، والاستعداد إلى احترام قيمه الدينية والثقافية، وعدم المساس بحريته وفي كل هذا يضطلع التسامح ضمنيا إلى إعادة النظر في الكثير من القيم الأخلاقية، التي تمنح الإنسان إنسانيته، وتجعل منه كائن حضاري واجتماعي ضمن الفضاء الجغرافي الدولي، وهذا يتمّ عبر تغيير العديد من الذهنيات، وتجاوز بعض السلوكات والمواقف التي لا تتكيف مع هذه المعطيات الأخلاقية الراهنة من أجل تحقيق فكرة السلام داخل هذا الفضاء، إنّ فكرة التسامح تستهدف تفجير بنية السلوك الإنساني الذي يحمل طاقة سلبية، وجعله يساير الذات الخيّرة التي تتوق إلى الأخلاق الفاضلة، والطاقة الإيجابية التي تقود السلوك نحو مراتب أسمى من السموّ الروحي، والحوار وقبول الطرف الآخر واللين والتساهل، لذلك يسعى هذا السؤال الفلسفي العميق إلى بناء صرح أخلاقي جديد تتعايش ضمنه مختلف المستويات السلوكية التي تصنع منظومة الانسان القيمية، ولكن هذا المشروع الأخلاقي يبقى استراتيجية وعملية حذرة وغير آمنة، في التعامل مع مختلف المواقف التي تصدر عن الانسان في محيط سياسي واجتماعي يحمل مجموعة من الخصوصيات، فتحقيق مبدأ التسامح يتأسس بوصفه طريقة للنظر والمعاينة إلى السلوك والاشتغال على الذات والحفر في جغرافيتها السلوكية، وهذا المبدأ يقف إلى الجانب الآخر المقابل لما هو غير أخلاقي، ويقود نحو العنف والقتل. فالتسامح بهذا المفهوم يمثل استراتيجية سلوكية تعتمد على مراجعة مواقف الانسان السلبية، ونسيان ما هو ماض ويمكن أن يشعل فتيل

النزاع من جديد، والنظر إلى الأمام، وما ينتظر الانسان من تحديات ومثيرات سياسية واجتماعية وثقافية وسلوكية، ليحاول الإقامة في أفق أخلاقي سام يسمح له بالتكيف مع مختلف المعطيات الراهنة والمستقبلية، فيشكّل استراتيجية بديلة في التعامل مع مختلف الأزمات الأخلاقية. وهذه الاستراتيجية إنما هي ثورية، تحاول إزاحة المكبوتات المترسبة في أعماق النفس الإنسانية وخلخلة وزعزعة مختلف الردود السلبية، وقيم التعصب التي تصدر عن الذات، ومن هنا يبدو سؤال التسامح طريقة خاصة في توجيه السلوك الإنساني نحو الأسمى، وإحداث قطيعة مع الأحقاد القديمة والنزاعات السابقة، لفسح المجال لفلسفة الحوار والرزانة في التفكير، وذلك بأن يقيم في هذا الأفق المفتوح من القيم الأخلاقية العالية، وجعل الرزانة والتريّث والاحتكام إلى العقل مكان التسرّع والرعونة، اللذان يخلفان المآسي للبشرية، ويحل بذلك الخير مكان الشر، و بمعنى آخر جعل الانسان كائن أخلاقي مصلح، واستثمار تلك الطاقة الإيجابية في نشر قيم السلام والأمن.

2-التسامح بحث في جينيالوجيا المصطلح:

إنّ الوقوف على المسار التاريخي لمصطلح التسامح، يحمل العديد من المطبّات والعوائق الإبستمولوجية، بحكم ما يعتري هذا المفهوم من اختلاف بين مختلف الثقافات الإنسانية، وفي حقول معرفية عديدة، من الفلسفة إلى الدين إلى القانون وحقوق الانسان، وهذا ما يجعل تتبع نشأة هذا المصطلح من المهام العلمية الصعبة، فهذا المفهوم قديم قدم الديانات والحضارات الإنسانية وما عاشته من صراعات ونزاعات دينية ومذهبية، من هنود وصينيين وسومريين وآشوريين وإغريقيين ورومانيين، وحتى الإسلام منذ ظهوره ناد بفكرة التسامح والعفو والحلم، كما ورد في العديد من الآيات القرآنية، ولكن بالمعنى من غير ورود هذا المصطلح، وحتى في اللغة العربية ورد هذا المفهوم كمايلي:«سمح سماحة وسموحة صار من أهل السماحة فهو سمح وسميح(...)وسامحه: بكذا وافقه على مطلوبه وبذنبه:عفا عنه(...)تسامح في كذا: تساهل»[2]، فالتسامح من منظور إسلامي هو مطلب ديني وحضاري، وفضيلة أخلاقية تضمن للإنسان العيش في حرية وسلام، لكن هذا المصطلح في نشأته، كمفهوم ثقافي وسياسي واجتماعي كما اتفق عليه جمهور الباحثين والفلاسفة في هذا الشأن، «يعتبر وليد حركة الإصلاح الديني الأوروبية التي اقترحته كحل لإنهاء الاقتتال الطويل الأمد بين أتباع المسيح خلال القرن السادس عشر وكمدخل لإرساء أسس الاعتراف المتبادل بينهم»[3]، من هنا ظهر هذا المصطلح ضمن الساحة الدينية

والسياسية الاجتماعية العالمية، «فكان أول من صاغ مفهوم التسامح هو كاستيلون في جداله مع كالفن عام 1553» [4]، فهذا المفهوم ولد من رحم الصراعات الدينية التي سيطرت على أوروبا خلال فترة القرون الوسطى وامتدت إلى فترات لاحقة، فكان هناك صراع بين المؤسسة الكنسية والمؤسسات الأخرى، لذلك ظهرت حركة الإصلاح الديني لتحاول القضاء على حركة العنف التي سادت في تلك الفترة واستئصال مسبباتها، فهذا المفهوم لم يتجاوز نطاق الدين في تلك المرحلة، لكنه يمثل المنطلق الأول لتطور هذا المصطلح، الذي خرج فيما بعد من عباءة الدين ليدخل في فضاء رحب يشمل السياسة والاجتماع والثقافة ومجالات أخرى عديدة، فاكتسب بذلك شرعية دولية، سمحت للشعوب المختلفة بالتعايش مع بعضها البعض، والقبول بمبدأ احترام ثقافة الآخر وموروثه الديني والحضاري والأخلاقي، وبالتالي فهو يقوم على أساس الاعتراف بفكرة التعددية الثقافية والدينية، وهذه الأفكار تغذت على مجموعة من الآراء لفلاسفة غربيين ينتمون لعصر الأنوار، أين ظهرت فيه الكثير من التيارات الفكرية والسياسية، والأصوات المطالبة بحقوق الانسان، خصوصا الفيلسوف الإنجليزي جون لوك في رسالته في التسامح، الذي دعا إلى تجاوز فكرة التعصّب الديني وإقامة الدين على العقل، وبالتالي إقامة نظام علماني يتمّ فيه فصل الدين عن الدولة، وهذا الرأي لقي استحسان فلاسفة تنويرين أمثال فولتير الذي ألّف كتاب "البحث في التسامح" ومونتيسكيو في كتابه "روح القوانين"، وكانط الذي يمثل علامة فارقة ضمن المشروع الفلسفي الغربي، حيث حاول تشكيل مشروع للسلام الدائم، يتم من خلاله تجاوز هذه الأزمات التي حلّت بالمجتمع الأوروبي انطلاقا من مبدأ أخلاقي يعيد تشكيل خريطة العلاقات الدولية بين الشعوب، ومن ثمّ دعت أغلب دول أوروبا إلى تجاوز ذلك العنف والتعصب واستبداله بمبدأ التسامح خصوصا في مجال الدين من خلال «قبول المبادئ أو الأفكار أو المعتقدات الدينية الأخرى داخل الدين الواحد أو مع الأديان الأخرى»[5]، من هنا صار التسامح من الحقوق الطبيعية للإنسان.

وقد أعيد طرح قضية التسامح فيما بعد بفعل المتغيرات السياسية والاجتماعية والدينية التي شهدتها أوروبا، خصوصا مع ظهور الثورة الصناعية وظهور الاستعمار، ثم ما خلفته الحروب الإقليمية والعالمية من خسائر بشرية ومادية، كان سببها التعصب والصراعات المختلفة، التي لم يجن منها الانسان الأوروبي غير الويلات والأحزان والقتل والدمار، لذلك ظهرت مجموعة من الأصوات السياسية التي تنادي بالتسامح كالفيلسوف والسياسي الهندي الماهاتما غاندي، والرئيس

الأسبق لجنوب إفريقيا ونلسون مانديلا، كما ظهرت مجموعة من المشاريع الفلسفية، التي حاولت تجاوز هذه الأزمة الأخلاقية، وتمثل مدرسة فرانكفورت في ألمانيا أحد أهم المدارس التي اشتغلت في هذا الشأن، ويمثل هابرماس أحد أعضائها البارزين، إضافة إلى جهود متفرقة نجدها عند فلاسفة وجوديين كجون بول سارتر وفلاسفة الاختلاف، ومن بينهم جاك دريدا.

3-مفهوم التسامح عند جاك دريدا:

سؤال التسامح عند جاك دريدا لم يطف على سطح الخطاب الفلسفي الدريدي كسؤال، إلاّ بعد مضي الحرب العالمية الثانية وبروز الحركات التحررية، التي استدعت العودة إلى قيم الحوار والتفاوض السلمي وتجاوز الأحقاد القديمة بين الشعوب، لذلك يقف هذا مفهوم التسامح كأحد القضايا التي شكّلت مشروع دريدا، إلى جانب مجموعة من القضايا الأخلاقية الأخرى، التي ينطلق دريدا في تحليلها من محطة الدين، فيتعامل معها كأحد الطقوس التي يمكن أن نجد لها مرجعية دينية يهودية أو مسيحية، وقد توسّع دريدا في هذه المسألة، وتعدّى الحديث عن التسامح الذي يجوز، إلى التسامح الصعب التحقيق أو المستحيل التحقيق، الإّ أنّ هدف دريدا ليس بلوغ مرتبة التسامح، ولكن من أجل تحقيق مبدأ المصالحة الوطنية والدولية، ولكن لدواعي برغماتية ونفعية في أغلب الأحيان، أو ترتبط بالجانب الاقتصادي الذي يخص العلاقات بين الدول والبلدان، وهذا التحليل يتجه نحو تفكيك سؤال التسامح، وإعادة النظر في القانون الذي يحكم العلاقات بين الشعوب، وتشكيل رؤية مغايرة تعيد النظر في المسائل الأخلاقية والقوانين التي تحكم المجتمع الدولي، وقد أراد دريدا أن يخرج هذا المفهوم من مرحلة سن اليأس التي بلغها مع الفلسفات السابقة، ليبث فيه روحا جديدا، ويبعث فيه نفسا آخر فيحييه من جديد، لكن من غير إنكار الأفكار السابقة التي تتعلق بأصوله الأولى في الثقافة الغربية« يشدّد جاك دريدا على الأصل المسيحي المتميز لفكرة التسامح التي تجعلها أقل حيادية كمفهوم سياسي وأخلاقي ممّا هي فعلا. إنّ الأصل والتركيز الديني يجعلها الأثر المتبقي من الإيماءة السلطوية والذي يكون فيه الآخر ليس مقبولا كطرف مكافئ بل تابع وربّما ذائب في المجتمع ومندمج فيه، وأسيء فهم اختلافه فعلا» [6]، فالعودة إلى هذا الأصل مبني على عدة اعتبارات، منها تجاوز التطرف نحو مسار معين سواء تعلق الأمر بالسياسة أو الأخلاق، «لقد كان دريدا محقا لما أخذ بعين الاعتبار الأصول اليهودية-المسيحية للصفح، الذي لا يخفي ارتباطه بالخطيئة في غمرة الصفح العظيم عند اليهود يغفر الله الخطايا

لشعبه المختار» [7]، وحتى الصفح لا يأتي به الانسان وإنما الرأفة الإلهية، وفي كل هذا يبدو من الأفعال الإنسانية الصعبة «ولا يعني التخلي عن العقاب فحسب وإنما يقتضي كرما ويتضمن لا تناظر جوهريا، فبدل الرد الشر بالشر أقابل الشر بالخير بينما ينحصر دور الرحمة في إيقاف الشر والامتناع عن العقاب وإذا كان الصفح فعلا فرديا فإنّ الرحمة غالبا ما تكون فعلا سياسيا» [8]، فالفعل الأول تصنعه إرادة ذاتية نابعة من روح سمحة، أمّا الفعل الثاني فتصنعه إرادة أكبر تفرض قرارها من غير مراعاة الوضع النفسي للفرد وهي المؤسسة التي تمتلك سلطة القرار، ويعود دريدا دائما إلى الأصل المسيحي للتسامح ليحاول ربطه بالمؤسسات السياسية الأوروبية التي وضعت للتسامح حدودا فاصلة، فيقول: «حقا التسامح قبل كل شيء شكل من أشكال الإحسان، وهو لذلك إحسان مسيحي وإن استخدم اليهود والمسلمون هذه اللغة أيضا إضافة إلى المعنى الديني للتسامح، يجب أن نتذكر أيضا مضامينها وارتباطاتها البيولوجية والوراثية أو العضوية. ففي فرنسا استعملت عبارة "حدّ التسامح" لتصف الحدّ الذي وراءه ليس من اللباقة الطلب من المجتمع أو الأمة الترحيب بأي عمال أجانب ومهاجرين وما شابههم»[9]، ودريدا يحاول طرح هذه القضية على مستويات عديدة، فيفتحها على الصعيد السياسي وحقوق الانسان، من أجل معرفة مدى نجاعتها على هذا المستوى، لكن تبدو أقل فعالية ضمن حقل السياسة الفرنسية والأنظمة الديموقراطية على الأقل، «إنّ فكرة التسامح بالنسبة لدريدا غير ملائمة وغير مناسبة لاستعمالها في السياسة العلمانية فنبرتها الدينية الشديدة وجذورها العميقة في المفهوم المسيحي للإحسان، تهزم أيّ ادّعاء بالكونية ودريدا، وهو متيقظ لكل حقائق اللغة، يشير إلى أنها ليست مصادفة أن يصادر الخطاب البيولوجي مفهوم التسامح ليشير للخط الواهن بين الاندماج وبين الرفض »[10]، وقد حاول دريدا التمييز بين مفهوم التسامح ومفاهيم أخرى تتقاطع معه على مستوى القيمة كمفهوم الضيافة، ف«التسامح هو عكس الضيافة التي يشير إليها دريدا كبديل، وهنا فالفرق بين التسامح(التحمل) وبين الضيافة ليس فرقا في دقة الدلالة، بل إنه يشير إلى المهم في منهج دريدا في الأخلاق والسياسة: الالتزام الفريد الذي يملكه أحدنا اتجاه الآخر، لكن الضيافة المطلقة وغير مشروطة لا تعني دعوة كهذه "أنا أدعوك أرحّب بك في بيتي شريطة أن تتكيف لقوانين ومعايير بلدي وأعرافي وذاكرتي وهكذا." الضيافة المطلقة أو غير مشروطة الضيافة نفسها مفتوحة أو أنها سلفا مفتوحة لشخص ما»[11] ، فالضيافة لا يمكن أن تحمل نفس شروط التسامح الذي يفرض تحملا للآخر ومسؤولية أخلاقية واجتماعية اتجاهه، وإنما فيها نوع من الحرية والإرادة، وفي هذا الصدد «يؤكد لنا جاك

دريدا على أنّ التسامح في التراث الغربي هو مجرّد نوع من الاحسان، صدقة ضيافة وليس قيمة ملزمة اجتماعيا وسياسيا ويشير إلى عبارة سقف التسامح التي شاعت في المجتمعات الغربية» [12]، وفي إطار هذا المفهوم الجديد للتسامح الذي جاء به دريدا والذي يطلق عليه اسم الضيافة (Hospitality) تقول جيوفانا بورادوري «إنّ دريدا لا يتلاعب بالدلالات اللغوية ولا يلعب بالكلمات وانما يعتمد بناء فكري كامل خاص به يتعلق بالتفاعل بين الاخلاق والسياسة ويتركز حول"الالتزام الفريد الذي يحمله كل واحد منا إزاء الآخر حتى لوكان هذا الآخر غريب غربة كاملة، ولم توجه له الدعوة ولم يكن منتظرا، ولكن ينبغي قبوله قبولا كاملا غير مشروط باعتباره زائرا ومقيما، لا ينازعه أحد في أي حق من حقوقه بوصفه صاحب الأرض والبيت والإقليم، أستقبلك وأستضيفك بشكل مطلق وبدون شروط»[13]، وقد لقيت هذه الفكرة نقدا لاذعا من قبل العديد من الفلاسفة وفي مقدمتهم إدغار موران الذي يقول: «ما يقوم به دريدا في اعتقادي هو عزل الصفح عن سياقاته أمّا أنا فأحاول اعتماد منظور يقحم مشكلة الصفح في سياقاته السيكولوجية والثقافية والتاريخية، وبالطبع في سياق هذا القرن المطبوع بتنظيم مجازر جماعية»[14]، لذلك ينبغي مراجعة هذا المفهوم مراجعة عميقة تأخذ بالحسبان كل هذه المتغيرات ف«إذا أرجعنا الصفح إلى وظيفته الأخلاقية والنفعية فإنه يغدو وظيفيا ويفقد خاصيته المميزة، فنحن ينبغي أن نميز الصفح عن المصالحة، ففي المصالحة يفهم الضحية المجرم ويتفهمه ويحاوره ويتفاهم معه، من أجل رأب الصدع ، من أجل تجاوز الشر، من أجل غاية، لكن الصفح متى ارتبط بغاية لم يعد صفحا »[15]، فعليه أن يتجرّد من هذا الهدف ليكتسب شرعية أخلاقية فانتهاج المنهج البراغماتي حسب دريدا يحمل الكثير من الأخطار، خصوصا لمّا يتعلق الأمر بظاهرة الإرهاب، وهو من خلال ذلك يهدف إلى تشكيل رؤية جديدة تخص العلاقات الإنسانية بين شعوب العالم من منظور أخلاقي لا من منظور براغماتي، لذلك تجتمع في كتاباته مجموعة من القواسم المشتركة مع هابرماس، وهي في مجملها أفكار تعيد طرح جديدا لمسألة التسامح، وهذا الخطاب حسب هؤلاء الدارسين يبدو دعوة لمبدأ الحوار والصفح، لأنه يحمل في طياته بذور السلام والغفران، كما أنه يتبنى مشروعا يعمل على إعادة الاعتبار لحقوق الشعوب الضعيفة وقيمها الأخلاقية، في سبيل إرساء نوع من العدالة بين الدول في إطار المجتمع الدولي، من أجل تكريس مجتمع إنساني، يستوي فيه مختلف الشعوب والأمم، لذلك يشتغل هذا المفكر على تشريح هذا السؤال الفلسفي وفتحه على أكثر من صعيد، فشكل هذا الخطاب الجديد الذي ينتقد سياسات الدول الغربية، فالعلاقات الدولية التي تربط بين مختلف

الشعوب تمثل سلاحا إيديولوجيا في مجتمعات سلطوية فكرية وسياسية، وهكذا تكون القيمة الأخلاقية خادمة لفئة سياسية واجتماعية معينة تملك وسائل التسلط والاستبداد ما يكفي لهزيمة الآخر، لذلك ينبغي حسب دريدا اعتماد مبدأ التسامح، من أجل تكريس مبدأ المساواة بين الشعوب، وإعادة تشكيل العلاقات بينها من منطلق التكافؤ والعدالة والتسامح، وهذه الأفكار تبناها مجموعة من المفكرين والكتاب والفلاسفة، ومن بينهم هابرماس في إطار مشروعه التواصلي.

4-مبدأ التسامح عند هابرماس:

تشكل سؤال التسامح عند هابرماس ضمن معطيات تاريخية، واجتماعية، وسياسية، وفكرية، ودينية خاصة، هيأت لهذا الصوت الفكري والفلسفي، بأن يعلن صراحة رفضه للوضع الذي تعيشه أوروبا في جوّ من الصراع الديني والعرقي والعسكري بين الأمم، خاصة مع مخلفات الحرب العالمية الثانية التي عادت بأوروبا إلى عصور مظلمة من التخلف، وإلى قرون بعيدة إلى الوراء، سبقت فترة الإصلاح الديني التي جاء بها مارتن لوثر، لذلك دعا إلى ضرورة فتح سبل الحوار بين الديانات، واعتماد مبدأ التشاور وفتح طاولة النقاش بين مختلف هذه الفصائل الدينية، لتقريب وجهات النظر بينها، «إذ توجد اليوم أرثوذكسية ذات عقلية متحجرة في الغرب، مثلما توجد هذه الأرثوذكسية في الشرق الأدنى والشرق الأوسط بين المسيحيين واليهود وكذلك المسلمين، ومن يريد تجنب الحرب بين الحضارات عليه أن يفكر مليا وبجدلية منفتحة وأن يستعيد في ذهنه سيرورة العلمانية في الغرب ومآسي الحرب العالمية الثانية، التي مثلت منعرجا خطيرا بالنسبة إلى أوروبا عامة وألمانيا خاصة»[16]، حيث بلغ العنف ذروته واستفحل الشر وعمّت المآسي والأحزان «يقدم هابرماس لغة التواصل والتفاهم والحوار بديلا عن العنف والإرهاب، ففي عصر العولمة وما بعد الحداثة يتّخذ التسامح اتجاهين، حيث لا ينبغي فقط أن يتسامح المؤمنون إزاء اعتقادات الآخرين، بما فيها عقائد غير المؤمنين وقناعاتهم فحسب، بل واجب العلمانيين وغير المتدينين أن يثمنوا قناعات مواطنيهم، الذين يحرّكهم دافع ديني» [17]، ومن أجل تحديد مفهوم التواصل وضبط إجراءاته جيدا استند هابرماس إلى جهود أعلام اللسانيات التداولية وفي مقدمتهم أوستين ونظريته حول أفعال الكلام، إضافة إلى سورل، وذلك من أجل إبراز مفعول الملفوظات الكلامية وتأثيراتها على المتلقين في العالم، وتحسين الكفاءة التواصلية للأفراد، طرح هابرماس الكثير من المفاهيم المتعلقة بتحقيق السلام والأمن العالميين، ومن بين هذه المفاهيم نجد المصالحة والتسامح والصفح

والاعتراف والتفاهم، التي طرحها هذا الفيلسوف في أغلب مدوناته الفلسفية والفكرية، خاصة بعد زوال الاتحاد السوفياتي، وما خلفه من آثار على دول أوروبا وألمانيا خصوصا بعد سقوط جدار برلين، وقد استند في دراسته على مجموعة من التراكمات المعرفية التي أخذت بها مدرسته لكنه طوّرها، «على العلم أنّ مدرسة فرانكفورت اعتمدت على المنهج الماركسي في نقد المجتمع، بالرغم من أنّ هابرماس غيّر من براديغم البحث الذي تميزت به المدرسة وتحوّله إلى تأسيس منهج جديد قائم على عدّة مقاربات(مقاربة فينومينولوجية، مقاربة نقدية، مقاربة هرمنيطقية»[18]، وهذا الخليط المنهجي شكّل فيما بعد المعالم الرئيسية لمشروع هابرماس الفكري، «لقد عمل هابرماس على تجديد وتحيين النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ضمن ما يسميه نظرية الفعل التواصلي، وقد قام من خلا نموذج التواصل اللغوي بتأسيس معياري للنظرية النقدية التي وصلت إلى نوع من الانسداد في أفق تغيير الوضع القائم على السيطرة، وتقديم البديل الممكن للعقلانية الأداتية التي أحكمت قبضتها الكلية على الطبيعة والانسان، ولهذا وضع هابرماس النظرية النقدية في قلب الحياة العملية والاجتماعية»[19]، ساهمت في بناء نظريته في الفعل التواصلي المؤسسة لمفهوم التسامح والتفاهم كأحد المفاهيم، التي تفرض جملة من الإجراءات الازمة لتحقيق هذا المسعى، خصوصا في حقل السياسة الذي يمثل وجهة هابرماس الفلسفية في تسعينيات القرن الماضي، من خلال فتح أبواب المناقشة، «فإنّ إيتيقا المناقشة (Ethique de la discussion) عند هابرماس تقوم على الحوار العقلاني والمحاجة والاقناع»[20]، الذي يرتبط بمفهوم المصالحة، الذي يفتحه على أرجاء أخرى بعيدة ترتبط بأعلى هرم السلطة السياسية، من أجل إعادة صياغة العلاقات الدولية على أسس جديدة تقوم على التسامح والعفو، الذي يفرض بدوره مفهوما آخر لا يقل أهمية عن سابقه وهو مفهوم النسيان، الذي أرجعه «كأمر قضائي صادر عن الحكومة يفترض أنه لا يتلقى التعارض ولا يحقق الطاعة الحقة، وحتى وإن كانت هناك تهديدات المتابعة القضائية في حالات تعبيرية الرافضة لمشروع المصالحة لا تندرج ضمن تدابير العفو»[21]، وتشكلت هذه الأفكار ضمن مجموعة من الكتب منها: كتاب "الإندماج الجمهوري" وكتاب "الحق والديموقراطية"، وقد«صرح هابرماس ضمن حوار مع جيوفانا بورادوري(Giovanna Borradori) أنه بعد أحداث 11 سبتمبر لم أتوقف عن التساؤل عن مثل هذا العنف، كل تصوراتي عن النشاط الموجه نحو التفاهم، التي عالجتها بداية من نظريتي عن الفعل التواصلي قد انهارت في سخافة غير متوقعة. بالنسبة إليه أنّ الأسباب التي ولدت العنف بالدول النامية التي تنتج الجماعات المتطرفة، نجدها بالمثل في العالم

المتقدم الذي يعيش عنفا هيكليا ناتج عن عدم المساواة وفقدانه للعدالة الاجتماعية مع ارتفاع نسبة الفقر ممّا جعل عملية التواصل مذبذبة وبالتالي فقد التفاهم الذي من المفروض أن يكون مؤطر داخل فضاء عمومي الذي يستدعي عقلانية تواصلية مضبوطة بنظرية المناقشة» [22]، من أجل وضع اليد على مسببات العنف وما يتغذى عليه من أصوليات سببت أحداث 11سبتمبر «إنّ الإرهاب الذي بلغ ذروته في اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر يحمل في طياته السمات الفوضوية لتمرد عاجز، بمعنى أنه موجه ضد عدو لا يمكن أن يهزم إذا ما نظرنا إليه كعمل واقعي يسعى وراء هدف يحققه، إن النتيجة الوحيدة الممكنة تكون في إثارة مشاعر الصدمة والقلق لدى المواطنين والحكومات» [23]، لذلك فحسب هابرماس تفرض هذه الأوضاع أن نكون متسامحين، فيكون التسامح شيء إيجابي خصوصا على مستوى الأديان، من أجل لمّ الشمل وتقوية الروابط الاجتماعية بين المواطنين داخل المجتمع الواحد، وقد «شدّد هابرماس في بحثه القيم الموسوم "متى يجب علينا أن نكون متسامحين؟" على المنافع العملية للتسامح الديني، حيث أشار إلى أنّ التسامح الديني عليه أن يستوعب التأثير الاجتماعي الهدام لاختلاف الآراء الذي مازال قائما»[24]، وهذا ما يسمح للمجتمعات بأن تتجاوز حالات العنف والإرهاب لتبلغ مرحلة السلم والحرية.

5-نقاط التقاطع بين دريدا وهابرماس:

من خلال استعراض آراء دريدا وهابرماز في مسألة التسامح، وكيفية طرح كل واحد منهما لهذه القضية ضمن المستوى الأخلاقي والسياسي، يمكننا الوقوف على أهم المحطات التي يقترب فيها الفيلسوفان على مستوى الأفكار والتصورات والمواقف، خصوصا بعد الحوار الذي أجري معهما من قبل جيوفانا بورادوري، وهذا لا ينفي بعض الاختلاف الذي هو سمة كل مشروع فلسفي، ففي البحث في قضية الإرهاب الدولي الذي سيطر على العالم في هذا القرن، «يتفق هابرماس ودريدا أنّ النظام القضائي والسياسي-القانون الدولي والمؤسسات الراهنة-في الغرب الآن إنما منشؤه ومصدره هو الإرث الفلسفي الغربي الضارب جذوره في عصر التنوير، وهو عصر تميز بكونه نسق فكري عام مرتكز على عدد من النصوص الأساسية وإزاء هذه الحقيقة فمن غير الفيلسوف يمتلك العدّة ليتفحص نقديا صحة الإطار القائم إزاء سوابقه التاريخية ولابد من تبيان أنّ المعركة ضد الإرهاب ليست مثل لعبة الشطرنج إذ ليست هناك قواعد مسبقة»[25].

فكلاهما يحملان همّا واحدا وهو البحث في مستقبل أوروبا والعالم، والبحث عن السبل الكفيلة لإقامة قانون دولي يضمن الحرية والديموقراطية لكل الشعوب، وهما يلقيان باللوم الأكبر على عصر الأنوار الذي شكّل براديغم خاص في مجال الأخلاق، يستند إلى مجموعة من الخطابات الفلسفية التي ميّزت تلك المرحلة التاريخية التي شهدتها أوروبا، فالأمر مختلف تماما في عصر العولمة الذي يمتلك شروطه الخاصة، التي تفرض على الفيلسوف تعاملا آخر مع مثل هذه القضايا الحساسة، خصوصا قضية الإرهاب، الذي تأثر كثيرا بمعطيات العولمة حسب الفيلسوفان، وتقارب الفيلسوفان في هذا الشأن هو من صميم البحث الفلسفي، رغم أنهما يختلفان في مسائل أخرى يمكن اختصارها فيما يلي:«عند هابرماس العقل يمكن علاج علل الحداثة بما فيها الأصولية والإرهاب، أمّا رأي دريدا فهو أنه يمكن كشف وتعيين هذه الأمراض المدمرة وتشخيصها، ولكن لا يمكن علاجها والتحكم بها كاملة أو التغلب عليها.

-الارهاب عرض من أعراض الحداثة عند دريدا بينما مرض من الأمراض المدمّرة عند هابرماس»[26] وهذه الاختلافات هي ليست الوحيدة، ولكن السياق لا يسمح بذكرها كاملة، ويبقى سؤال التسامح عند دريدا وهابرماس مفتوح على آفاق واسعة من التأويل والقراءة.

- خاتمة:

في ختام هذا المقال الذي يخص سؤال التسامح بين اللحظة الدريدية واللحظة الهابرماسية يمكننا الخروج بجملة من النتائج، تمثل زبدة هذا البحث الذي يخص مفكران كبيران شكّلا صرح الفلسفة الغربية المعاصرة، وهذا السؤال قديم لكنه أعيد طرحه في سياق الأحداث السياسية والتحولات التي شهدتها أوروبا والعالم الغربي المعاصر، وبروز تيار ما بعد الحداثة، هذا السؤال الذي هو أصلا سؤال فلسفي معقد، يحاول الحفر في عمق الأزمات المعاصرة، والبحث عن مسبباتها الأساسية، التي صنعت مجموعة من الأصوليات المتعصبة، التي سببت العنف في العالم، وتركت شعوبه تعيش وضعية عدم الاستقرار في ظل الإرهاب الدولي الذي استفحل في جسد المجتمع الدولي، ومن أجل تجاوز هذا الواقع المرّ، والتخلّص من هذه الأزمات الدينية والأخلاقية والسياسية، ينبغي العودة إلى مبدأ التسامح، الذي يستدعي بدوره جملة من الشروط المعرفية والنفسية التي تتعلق بطبيعة الأفراد أنفسهم، حتى يتم تجنب بعض العصبيات والنعرات الدينية، وتحقيق هذا المبدأ النبيل، وهذا بوضعه في إطاره القانوني والأخلاقي للوصول بالمجتمع الدولي إلى

سلام دائم ومستديم، فالدعوة إلى الحوار والمناقشة تصبح مطلبا إلزاميا، يتحقق انطلاقا من سلطة عليا تفرضه داخل المجتمع بقرار سياسي يقوم على مبدأ الرضا بين مختلف الأطراف المتنازعة، لتجاوز ظاهرة الإرهاب الدولي، الذي تمارسه مجموعة من الجماعات، وفئة من الأفراد التي تنضوي تحت لواء عقيدة معينة، أو مذهب ديني معين لأنّ هذا الإرهاب يقف حجرة عثرة في وجه السلام الدولي، وقيمه الأخلاقية، لذلك انصبّ بحث هابرماس خصوصا حول تجليات الأزمة الأخلاقية التي يشهدها المجتمع الغربي في ظل هيمنة العقل الأداتي، والبحث عن السبل الكفيلة لتحقيق الأمن الدولي، وهذا عبر فعل التواصل الذي يحقق هذه الأهداف الأخلاقية بدرجة أولى، وينتج البدائل العقلية والمعرفية التي تتيح لشعوب العالم فرصة العيش في سلام ووئام، من خلال الالتزام ببعض المفاهيم التي طرحها جاك دريدا وهابرماس، وحاولا إثباتها كاستراتيجية كفيلة بإخراج المجتمع الدولي من المآزق الذي يعيشها، ويبقى مفهوم التسامح أحد أهم مرتكزات مشروع دريدا وهابرماس، كسؤال فلسفي بدرجة أولى، وكأحد أهم التطلعات التي يطمح إلى تحقيقها هذان المفكران ضمن الخريطة الجيوسياسية العالمية .

-الهوامش والإحالات:

1- إبراهيم الحيدري: سوسيولوجيا العنف والإرهاب، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط1، 2015، ص.271

2-مجمع اللغة العربية بمصر: المعجم الوسيط، دار الشروق الدولية، بيروت، ط4، 2005، ص 447.

3-أحمد رياض: مفهوم التسامح بين الفلسفة وحقوق الانسان، على الرابط الآتي:
.alghirbal.blogspot.com/05/2014/blog-post 11htm

4- إبراهيم الحيدري: سوسيولوجيا العنف والإرهاب، ص.373

5- المرجع نفسه: ص.277

6- المرجع نفسه: ص 307.

7- عبد السلام بن عبد العالي: الصفح والمصالحة، مجلة يتفكرون، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط، ع2 خريف 2013، ص 9.

8- المرجع نفسه: ص.ن.

9- إبراهيم الحيدري: سوسيولوجيا العنف والإرهاب، ص 307.

10- المرجع نفسه: ص.ن.

11- المرجع نفسه: ص .308

12- المرجع نفسه: ص.ن.

13- جيوفانا بورادوري: الفلسفة في مواجهة الإرهاب تأملات في آراء هابرماس ودريدا، تر: خلدون النبواني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، ط1، 2013، ص204.

14- عبد السلام بن عبد العالي: الصفح والمصالحة، ص8.

15- إبراهيم الحيدري: سوسيولوجيا العنف والإرهاب، ص .309

16- المرجع نفسه: ص 304.

17- إبراهيم الحيدري: سوسيولوجيا والعنف والإرهاب، ص 306-307.

18- عبد القادر مالفي: تداخل المفاهيم عند كل من دريدا وهابرماس حول التفاهم والتسامح والمصالحة، المؤتمر الدولي الثالث جاك دريدا بين النقد الأدبي والفلسفة يومي 18-19 نوفمبر 2014، كلية العلوم الاجتماعية، شعبة الفلسفة، جامعة مستغانم، 2014، ص.208

19- كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى أكسل هونيث، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص 117.

20- المرجع نفسه: ص120.

21- عبد القادر مالفي: تداخل المفاهيم حول التفاهم والتسامح والمصالحة، ص .209

22- المرجع نفسه: ص.210

23- إبراهيم الحيدري: سوسيولوجيا العنف والإرهاب، ص 304.

24- المرجع نفسه: ص305.

25- زيد العامري الرفاعي: قراءة في كتاب الفلسفة في مواجهة الإرهاب لجيوفانا بورادوري، على الرابط الآتي: www.hurriyat.com9/5/2013